
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

المؤرخون المغاربة
و«بعض القضايا المنهجية لعلوم التاريخ»

ذ. محمد معروف الدفالي

عقدت «الجمعية المغربية للبحث التاريخي»، أيامها الوطنية السنوية، بكلية الاداب والعلوم الإنسانية، بالرباط، يومي 24، 25 أكتوبر 1997، حيث انكب المؤرخون المغاربة على مناقشة بعض أمور حقلهم المعرفي، وحقلهم التنظيمي.

فتحت عنوان «بعض القضايا المنهجية لعلوم التاريخ»، كان يوم الجمعة 24 أكتوبر، يوما دراسيا، جسد إيمان الجمعية بتداخل الاختصاصات، وتعاون العلوم الإنسانية فيما بينها. ألقيت فيه سبع مداخلات بمساهمة باحثين في التاريخ، وفي الجغرافية وفي اللغة والأدب، والفلسفة.

استهل الحديث في الجلسة الصباحية، الاستاذ محمد مبكر من كلية الآداب ظهر المهراز بفاس، في موضوع «أسماء الأعلام والبرسبوغرافيا في الدراسات التاريخية» فتابع مصطلح «البرسبوغرافيا»، من حيث تركيب الكلمة ومعناها «وصف الشخصيات»، واستعمالاتها القديمة التي ارتبطت بوصف قسمات الوجه، ثم تطورت إلى الاهتمام بدراسة الشخصيات، قبل أن تصبح نهجاً أو مقاربة للتاريخ لها خصوصيتها، ليست «البرسبوغرافيا» ـ حسب المداخلة ـ بيوغرافيا، إلا أنها تستغل البيوغرافيا. فهي عملية تحليل ينطلق من تكوين جذاذات فردية، تتضمن معلومات متنوعة، عن حياة أشخاص تربطهم ببعض علاقات معينة، وتنهج في عملها تحديد الرابط بين هؤلاء الأشخاص، بواسطة تحضير لائحة الأشخاص المقصودة دراستهم، ثم جمع معلومات حولهم، وترتيبها، ثم القيام بتحليل مقارن بين الجذاذات التي جمعت، قبل معالجة المعطيات والتحرير. واستناداً إلى هذا النهج، أشار الأستاذ مبكر إلى الاهتمام الذي توليه «البرسبوغرافيا» لتوظيف الإحصائيات، والحاسوب، كما أشار إلى بعض خصائصها والتي منها، تركيز الإهتمام على الشرائح العليا في المجتمع، والاهتمام بالفرد، وتغييب المؤسسة. وفي محاولة لرصد تطور «البرسبوغرافيا» ميز الأستاذ بين ثلاث مراحل،

أطلق علي الأولى اسم مرحلة المعاجم البيوغرافية، والجينالوجية، وهي مرحلة اهتمت بالتاريخ القديم، وبرز فيه الانجليز بصفة خاصة، ومرحلة القرن التاسع عشر التي ركزت على التاريخ الروماني، ثم مرحلة توسع الاستعانة بهذا النهج في مجموع شعب التاريخ لدراسة ظواهر مختلفة، واكتساح ميادين بحث جديدة. وقد تجلت عوامل هذا التوسع ـ حسب الاستاذ ـ في توفر المواضيع التي تستدعي استخدام «البرسبوغرافيا»، مثل دراسة الطوائف، والحرف، والأسر...، وحاجة بعض ميادين التاريخ إلى مقاربات جديدة، والانجذاب نحو المعلوميات في بعض المعالجات التاريخية.

وكخلاصة لهذا العرض، تساءل الأستاذ مبكر حول نهج «البرسبوغرافيا»، وجدواه، فأشار إلى موقفين متباينين إزاءه : أحدهما ينعته بالتفاهة، والآخر يرى أهميته، وضرورة استغلاله، خصوصاً في دراسة النخب، وإبراز أدوارها، مبينا أنه إذا كانت الانتقادات تحد من قيمة «البرسبوغرافيا»، كمقاربة، فهناك مواضيع يلائمها هذا النهج، خاصة إذا تم توسيعه بمقاربات مساعدة. وختم عرضه بتساؤل حول ما يمكن عمله من أجل استغلال «البرسبوغرافيا»، في المجال العربي الإسلامي، والعلاقة التي يمكن أن تربط بينه وبين كتب التراجم.

أما الأستاذ عبد الأحد السبتي، من كلية الآداب بالرباط، فقد تناول إحدى الـ «قضايا في دراسة التاريخيات»، تحت عنوان «عودة إلى أدب المناقب»، والكرامات، فبين بعض أسباب هذه العودة، موزعا مواقف الباحثين المغاربة، من الكرامات، إلى موقف التصديق والإيمان، وموقف الرفض الذي يعتبرها مجرد زوائد لا يمكن تصديقها، بل وجب إلغاؤها، وموقف التعامل مع الكرامة في إطار متخيل جماعي. وبين هذه المواقف، اقترح موقفا رابعا، من أجل الربط في مادة الكرامة بين ما هو متخيل، وما هو ممارسة اجتماعية، بمعنى البحث في المضمون الرمزي للكرامة، من منظور فعالية الرمز. ومن خلال هذا المقترح سعى الاستاذ إلى توضيح فوائد الكرامات في الكتابة التاريخية، عبر ثلاث مستويات هي :

ـ مستوى السياق : يعني سياق الكرامة، وأهميته في بعض الفضاءات، حيث تفيد مادة الكرامة بمعطيات غير مقصودة، تخص الحياة اليومية، كالغذاء، والأزمات الغذائية، والمستجدات الغذائية، ومجموعة من طلبات المجتمع...

ـ مستوى النمط : يعني واحدية نمطية نصوص الكرامات، رغم تنوع هذه الأخيرة، فالكرامة دائما مكافأة على ما يسمى مجاهدة النفس، فهي تفيدنا فيما هو نمطي، لكنها تطرح مسألة الانتقال مما هو نمطي إلى ما هو محدد.

ـ (مستوى) وظيفة الكرامة : وتُطرح هذه الوظيفة، على المستوى العام ـ حسب الاستاذ السبتي ـ مثلما تُطرح وظائف الاسطوغرافيا، بشكل عام، بينما على المستوى الخاص، وظيفة

أدب المناقب والكرامات، هي وظيفة إعلامية، تشيع ـ على سبيل المثال ـ هيبة الولي، ووظيفة تربوية، تعطي مجموعة من القيم والسلوكات، ووظيفة تقنينية تشريعية، تُقنّن عن طريق استعراض كرامات، ترتبط بزجر من خالف الولي، بل إن الحرم كوظيفة تقنينية، لعب دورا في تلطيف الصراعات والانقسامات. وكخلاصة لهذا العرض، لاحظ الاستاذ السبتي أن غنى وكثافة أدب الكرامات، يفرض على الباحث الأخذ بعين الاعتبار هذه المستويات، وضرورة الانتقال من مستوى لآخر، كما أكد على فائدة أدب الكرامات في نقد المعلومات الواردة خارج كتب المناقب.

ومحور الاستاذ محمد العيادي، من كلية الآداب عين الشق، مداخلته حول «الكتابات التاريخية الحديثة، ومسألة الحدود بين العلوم الاجتماعية»، حيث سرد معلومات حول بداية المدارس التاريخية الحديثة، مركزا على فرنسا، والسياق الذي تبلور فيه اتجاه «مدرسة الحوليات»، وكذا سعي هذه المدرسة إلى توحيد العلوم الاجتماعية، على أساس الموضوع. وفي هذا السياق، ذكر بالخطوط العريضة لاهتمامات هذه المدرسة، والنتائج التي تمخضت عن عملية تكسير الحدود بين التاريخ والعلوم الاجتماعية، وكذلك الحدود الجديدة التي أقيمت بين أنصار «الحوليات»، وأنصار الكتابة التاريخية بشكلها التقليدي، كما أشار إلى التخصصات الجديدة التي رافقت انفتاح التاريخ على العلوم الاجتماعية الأخرى، وختم عرضه، بحديث حول عودة «الحدث»، و«السياسي»، إلى الكتابة التاريخية، بمساهمة مدرسة الحوليات التي أهملته في فترة ما، وطبيعة هذا الرجوع، وجدته، وتحكم ربط الحاضر بالماضي في مضمونه.

أما الاستاذ ابراهيم بوطالب، من كلية الآداب بالرباط، فقد ركز مداخلته على «قضية المصطلح في الدراسات التاريخية»، مستهلا حديثه، بالتنبيه إلى أن صناعة المؤرخ تلزمه، باحترام الزمان والمكان، واحترام مفاهيم ومصطلحات الفترة المدروسة، ملاحظا أن مجموعة من الأبحاث يستهويها الإسقاط، فتستعمل إزاء تاريخ المغرب، مجموعة من المصطلحات، تتجاوز الزمن، والمكان، والوثيقة، من قبيل : فيودالية، برجوازية، إدارة، إصلاح، تهدئة... وما شابه ذلك من مفاهيم، تتسبب في بعض الخلط والإبهام، وبعد أن أعطى الاستاذ أمثلة عن هذا الخلط، لاحظ أن أسبابه تكمن وراء الإرث الذي تقوم عليه المدرسة التاريخية المغربية الحاضرة، وهو إرث مزدوج، تشخصه المدرسة العتيقة، ذات المميزات المبنية على الذاتية المغلقة، والاهتمام بالسرد المحض، وحصر التاريخ في مجرد إنشاء أدبي، والمدرسة الاستعمارية التي جاءت بمعطيات، ومفاهيم جديدة، والتي رغم تسلحها بموضوعية مشوبة، فإنها فتحت أمام المغاربة، آفاقا جديدة وعرفتهم بتاريخ الأمم الأخرى، وانتقلت بالكتابة التاريخية المغربية، من السرد إلى التأويل، وإلى إمكانية كتابة تاريخ المغرب بلغات أخرى. فعلى أنقاض هذين الإرثين ـ في نظر الاستاذ ـ قامت مدرسة تاريخية مغربية جديدة، من صفاتها محاولة البحث عن

الذاتية، من خلال الموضوعية، ومحاولة كتابة تاريخ المغرب، كجزء من تاريخ باقي الأمم، والرغبة في الانتقال من التحليل إلى التركيب بطريقة جديدة، ومفاهيم جديدة. إن هذين الإرثين ـ في رأي الاستاذ بوطالب ـ مسؤولان عن الخلط الذي يعتري تحقيب تاريخ المغرب، وتبني التقسيم الأوربي (قديم، وسيط، حديث، معاصر)، إضافة إلى تبني التاريخ الميلادي عوض الهجري. وفي سياق هذه الرؤية، أكد الأستاذ في خلاصات عرضه، على الإشكال الذي تطرحه عملية التحقيب، والتأرجح بين زمنين، الذي يطرحه تبني التاريخ الميلادي، وعلى استعمال مفاهيم ومصطلحات، خارج الزمن والمكان والوثيقة المغربية، كما اقترح الاحتفاظ ببعض المفاهيم التي استعملها الفرنسيون إزاء بعض فترات أو أحداث تاريخ المغرب المعاصر، والتي لا تحتفظ ترجمتها العربية بنفس الشحنة، معتبرا أن هذه المفاهيم قد أصبحت مفاهيم تاريخية، وختم عرضه بأنه آن الأوان لمراجعة إشكال المصطلح في الدراسات التاريخية المغربية.

وفي جلسة المساء بدأ الحديث، الاستاذ محمد بلفقيه، من كلية الآداب بالرباط، في موضوع «جدلية الزمان والمكان بين التاريخ والجغرافية»، موجها عرضه من خلال تساؤلات، منها : هل تحققت هذه الجدلية عمليا؟ وهل أعطت ما يرجى منها؟ وكيف يمكن طرح الموضوع على ضوء المستجدات؟

لقد استدعى مسيس الحاجة إلى تقعيد الجدلية، والتكامل بين التخصصين، إطلالة من طرف الاستاذ بلفقيه على التاريخ القريب لتطور العلاقة بين الجغرافية والتاريخ، فتحدث عن المرحلة الأولى الممتدة بين سنوات 1910 ـ 1930، ونعتها بزمن الوصال، مبينا أن أقوى المساهمات في الجدلية، للجانبين كانت في هذه المرحلة، وتجلت في مساهمة الجغرافيين بالنهج الفيدالي، وسعي التاريخ إلى تحرير الجغرافية من الحتمية الطبيعية الضيقة. ثم مرحلة 1930 ـ 1960، التي بلغت فيها الجدلية دروتها، في إطار المشروع البروديلي، وهو مشروع لم يتمعن فيه الجغرافيون جيدا ـ حسب الاستاذ بلفقيه ـ أما المرحلة الممتدة بين الستينات والسبعينات، فقد نعتها الاستاذ بمرحلة التصدع والانفصال. فالتأثر بالحداثة، وطرق البحث الجديدة، جعل الجغرافية، تنفصل عن هذه الجدلية، في اتجاه الاهتمام بالمجال، الذي رحب به الجغرافيون كمصطلح، غير أن الانفصال ـ حسب الاستاذ ـ أثبت سلبياته، فاتضحت من جديد، ضرورة الحوار، وانطلقت مرحلة جديدة، هي مرحلة السوانح والتنادي، التي تزامنت مع فترة التقت حولها كل العلوم الانسانية، وساهمت فيها الجغرافية، بالجغرافية الوضعية، والجغرافية الجديدة، الظاهراتية والناسوتية. ففي هذا السياق بدأت تظهر نقط التقاء، إلا أنه التقاء ـ حسب الاستاذ بلفقيه ـ لم يحدث بعد، وبخصوص الوضعية الحالية للجدلية بين التاريخ والجغرافية، لاحظ الاستاذ وجود ثلاثة مستويات، مستوى الحفاظ على التجاور الصامت، ومستوى القطيعة باسم التخصص، ومستوى البحث عن التكامل، وهو النظرة

الصحيحة، وضمن هذه النظرة الأخيرة، أكد الاستاذ على حق طرح ضرورة الرابطة بين التاريخ والجغرافية مجددا، مقترحا ضرورة توفير بعض الشروط والإجراءات، على رأسها :

ـ العمل على تحديد الغايات والمقاصد المشتركة.

ـ تحديد حقل الجدلية بين التاريخ والجغرافية.

ودعا إلى تبني ابستمولوجية بينية، تربط علم التاريخ، وعلم الجغرافية، وإلى إحياء الحوار، وتعميق معنى الجدلية، عن طريق استجلاء منطق هذه الجدلية، وإبراز الجغرافيين والمؤرخين حسب توجهاتهم، ووضع خريطة للاهتمامات المشتركة، وكذا وضع جدلية الزمان والمكان، ضمن إشكاليات العلوم الإنسانية والاجتماعية عامة... ومن أجل التسريع بهذه المقترحات نحو حيز الواقع، دعا الاستاذ بلفقيه إلى دورات تدريبية مشتركة، وإعداد بحوث مشتركة، والإشراف العلمي المشترك، ومراجعة برامج التدريس.

بعد ذلك تناول الكلمة، الاستاذ ادريس المنصوري، من جامعة فاس، في موضوع «الموضوعية والمعيارية في العلوم الاجتماعية»، فبدأ الحديث بالإشارة إلى ارتباط التاريخ بالوثيقة، واشتمال الوثيقة في طياتها على مستويين اثنين، هما المعيارية والموضوعية ولتوضيح هذه المسألة عاد إلى التمييز الذي كان يضعه الإغريق بين النظرية، والاسطوريا، ووقف على الملابسات التي طرحت الإشكالية، انطلاقا من تيار التحريفية، ولاحظ الاستاذ المنصوري خلال عرضه أن الأرشيف في حد ذاته معرض دائما إلى إضافات، وأنه ليس دائما موضوعيا بقدر ما هو معياري، وأنه ـ أي الارشيف ـ مرتبط بالماضي افتراضيا، لكنه في الواقع، يرتبط بالمستقبل، ومن هنا فرهان التاريخ ليس فقط رهان الموضوعية في الماضي، وعلى هذا الأساس خلص الاستاذ إلى وجود المعيارية في التاريخ، إلى جانب الموضوعية على غرار العلوم الأخرى.

أما الاستاذ محمد مفتاح، من كلية الاداب بالرباط، فتحدث حول «المؤرخ وثقافة العصر»، حيث لاحظ أن المؤرخ يستقي من ثقافة عصره ـ خصوصا ما ظهر له منها أنه عالمي ـ ليأخذ منها ويستعين بها. وتسليما بهذه النظرة تتبع المؤرخ في فترة سيادة ثقافة الحداثة، وفترة ثقافة ما بعد الحداثة. ففي المستوى الأول لاحظ الاستاذ مفتاح طغيان نوع من الموازنة بين العلوم الطبيعية، وسلوك المؤرخ، وكيف أصبح المؤرخ مثل عامل ميكانيكي يبحث في القوانين، لا في المصادفة، بسبب تأثره بفكر عصر الأنوار، ولتوضيح هذه النقطة أبرز الاستاذ بعض مظاهر ذلك التأثر، فتحدث عن المؤرخ ومفهوم الحتمية، وبحث المؤرخين عن العلاقة بين معرفة الماضي، ومعرفة المستقبل، وكيف أصبح التفسير التاريخي قانونيا، بل قدريا، بسبب تأثر التاريخ بالحتمية، وما تقتضيه من تنبؤ. كما تحدث عن المؤرخ ومفهوم الحقيقة، انطلاقا من أن من يقول بالحتمية والتنبؤ المطلقين، يقول بالحقيقة، وهكذا لاحظ الاستاذ أن كثيرا من المفاهيم التاريخية مستقاة من الرياضيات وميكانيكا نيوتن، والفيزياء. وكخلاصة لهذه النقطة، أكد

الاستاذ على أثر مفاهيم الحداثة في التاريخ. أما في فترة ما بعد الحداثة، فأهم المفاهيم هي الدينامية المعقدة، والصماء، واللانظام، واللاخطية، والتشوشات، والتناظر، والتدرج واللانتظام... وهي مفاهيم مرتبطة بحلقة فلسفية أنجبت لدى المؤرخين ما أطلق عليه اسم «التاريخ الديمقراطي» الذي اهتم بالأقليات، وبالحركات النسائية. وبين أثر فترة الحداثة، وأثر فترة ما بعد الحداثة، تحدث الاستاذ مفتاح، عن موقف وسط تزعمته الدرائعية الأمريكية. وكخلاصة للموضوع أشار الأستاذ إلى أن المؤرخ لا ينتج مفاهيم خاصة، وتعترضه في ذلك صعوبات على المستوى العام، نابعة من استيقائه مفاهيمه من علوم أخرى، وتطبيقها بشكل حرفي، تنجم عنه أخطاء شاسعة، أما على المستوى الخاص فالمفاهيم العلمية متأثرة بالمناخ الذي أفرزها، وكل مفهوم محكوم بالايديولوجية، ووجهة النظر. وهكذا فطرح التاريخاني في العلوم الجديدة ترفضه مراعاة المحيط، ومراعاة الظرفيات.

وقد ختم هذه العروض، الاستاذ محمد الوالي، من جامعة فاس، بموضوع «البلاغة والتاريخ»، فوضح استعمال البلاغة مرادفا للحجاج، كما وضح كيف أن الحجاج في العلوم الإنسانية تشوبه دائما هشاشة. ولتبيان هذه الهشاشة والدلالة عليها، اختار الاستاذ الوالي أربع استعارات من ابن خلدون. ولاحظ أن ابن خلدون استعمل استعارات كثيرة، وهي استعارات لم يكن شاهدا فيها، وإنما وظفها من أجل البرهنة. ومن هنا كان استعمال الاستعارات لديه من أجل وظيفتها الإقناعية أو البرهانية أو التفسيرية. إن المؤرخ ـ كما قال الاستاذ ـ لا يلجأ إلى الاستعارة فقط، بل يلجأ كذلك إلى المقارنة، والمقارنة بين شيئين مختلفين استعارة، وليست مقارنة. فوظيفة الاستعارة تلقينية، ولكي تستقيم عملية الاستعارة عند ابن خلدون ـ في نظر الاستاذ ـ فإنه لجأ إلى التصرف في الموضوع، وحتى في الاستعارة، واستنادا إلى هذا الطرح ختم الاستاذ عرضه بتساؤل مفاده، هل كان ابن خلدون يتحدث عن الواقع حقا، أم كان يبحث عن درائع.

وقد تم اختتام هذا اليوم الدراسي، بمناقشات مفيدة، بين الحاضرين، تبادلوا خلالها وجهات النظر بشكل أغنى الاستفادة التي حصلت من العروض، والإشكالات التي طرحت بين ثناياها.

أما صبيحة يوم السبت 25 أكتوبر، فقد خصصها المؤرخون المغاربة للجانب التنظيمي، لجمعيتهم، بعقد جمع عام، لتدارس قضاياها عن طريق تقويم إنجازات، ومسار السنتين الماضيتين، وتقديم مقترحات للمستقبل. وفي هذا السياق، قدم الكاتب العام للجمعية، الاستاذ ابراهيم بوطالب، تقريرا أدبيا تناول أنشطة الجمعية خلال سنتين، علميا، وتنظيميا، إلى جانب إخبار بانضمام الجمعية إلى المؤتمر العالمي للمؤرخين، كما أثار بعض النقط التي تم تسطيرها كآفاق للعمل. وقدم بعد ذلك أمين الجمعية، الاستاذ عبد الحميد احساين تقريرا ماليا، فصل

فيه الأوضاع المالية للجمعية ومستجداتها، خلال السنتين الفارطتين، وبعد مناقشة التقريرين، وإغنائهما بتقديم مقترحات لتطوير العمل، تمت المصادقة عليهما، كما قدم مكتب الجمعية استقالته.

ومن أجل انتخاب مكتب جديد للجمعية تكلف الاستاذ، محمد المنصور، من كلية الاداب بالرباط بتسيير ما تبقى من الجمع العام، حيث أشرف على تقديم الترشيحات، وعلى العملية الانتخابية التي أفرزت أحد عشر عضوا لمهام المكتب الجديد، وبانتخاب أعضاء المكتب الجديد، انتهت الأيام الوطنية للجمعية المغربية للبحث التاريخي، لهذه السنة.

وفي اجتماع لاحق للأعضاء المنتخبين، بتاريخ 15 نونبر 1997، بكلية الآداب بالرباط، تم توزيع المهام. فكانت التركيبة التالية :.

الكاتب العام	ابراهيم بوطالب	كلية الآداب ـ الرباط
نائب الكاتب العام	نفيسة الذهبي	كلية الآداب ـ القنيطرة
أمين الصندوق	عبد الحميد احساين	كلية الآداب ـ ابن مسيك
نائب أمين الصندوق	بوشتى بوعسرية	كلية الآداب ـ مكناس
مقرر الجمعية	بوجمعة رويان	كلية الآداب ـ القنيطرة
نائب مقرر الجمعية	عبد العزيز بل الفايدة	كلية الآداب ـ القنيطرة
المستشارون	عثمان المنصوري	كلية الآداب ـ عين الشق
	محمد معروف الدفالي	كلية الآداب ـ عين الشق
	جامع بيضا	كلية الآداب ـ الرباط
	عبد المجيد القدوري	كلية الآداب ـ الرباط
	عبد الرحيم بنحادة	كلية الآداب ـ سايس فاس